ابو العلاء على هامش رسالة الغفران

بقلم جورج عيسى الأسمر

في الخزيع الأخير من ليلة لبلاء استهل وليد في معرة النعمان استهل الوجود ببشارة الوصول وبكاء الخائف من المجهول ولله در ابن الرومي يتأول هذا البكاء ويعتل له في خارج من ظلمات الرحم الى دفء خيوط ذكاء. قال:

اذا ابصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يُهدِدُ
وللنفس احوال تظل كأنها تشاهد فيها كل غيب سيشهد

لم يكن ذلك الوليد الذي أطلّ على الوجود — سنة ثلاثمائة وثلاث وستين سوى أحمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي المكنى بأبي العلاء المعري.

كان ذلك العصر الذي ابصر فيه المعري النور عصر اضطراب وقلق وخور في السياسة واختلال في الاخلاق؛ وكان من نتيجة ذلك أن عمّ الفساد وانتشر الظلم وكثر النفاق والتمس الناس شتى الوسائل لكسب العيش كما فاء كثير منهم الى ربهم يعتصمون بحبله لعله ينجيهم من ذلك البلاء بظهور رحمة من لدنه؛ كما انصرف قسم آخر الى الاستهتار يأساً من تلك الاوضاع الزرية والاحوال السيئة.

وينبغي لنا دائماً ان نتذكر تلك الاحوال السياسية والاجتماعية الشاذة ونحن ندرس ابا العلاء؛ ذلك انه كان لها اثر بيّن جليّ في تكوين شخصيته وتأثير عنيف على تفكيره؛ كما ينبغي أن نتذكر أنّ ابا العلاء عربي قح وسليل عائلة اتسمت بالعلم والتدين الصريح الصحيح: فقد ولي القضاء من آبائه وعمومته عدد جم غفير. وقد ولي ابوه قضاء حمص مدة طويلة وكان شيخاً وقوراً رفيع القدر عالماً لا يشقّ له غبار. ولما أصيب ابو العلاء بأولى كوارثه كان ذلك الاب الشفيق من ابنه بمثابة الاب والرفيق والاستاذ

فاخذ الطفل على ابيه علوم اللغة والدين والادب . ولكن اقتدر يشاء ان يفجع ذلك الغلام بفاجعة ثانية ولما يَعْدُ الرابعة عشرة إذ قُبض والده مخلفاً وراءه يافعاً اعمى كان يرى في ذلك الوالد السند الوحيد والملاذ الامين الذي يلجأ اليه في ساعات الشدة ؛ على ان الغلام صبر النفس على مضض ومضى يقرأ ما تقع عليه يده من العلوم الدخيلة ومما كان قد نُقل الى العربية ايام التدوين من فلسفة وآداب وعلوم الامم المغلوبة على أمرها فكان له من ذلك كله خير زاد علمي وفلسفي ودِيني وقد ساعده على ذلك ذاكرة فذة واستحضار عجيب وبديهة رائعة ؛ وليس عليك الا ان تقرأ طرفاً من كتبه لتدرك مدى ما وهبت تلك الذاكرة التي لا استطيع أن أدعوها الا انها خزانة كتب . وحدثنا ابو العلاء انه لم يكن بحاجة الى مزيد من العلم بعد سن العشرين . ولكن كيف يقنع من كان في مثل ذكائه بذلك القدر الضئيل ولا يضرب في مشارق الارض ومغاربها طلباً للمزيد من العلم؟ وكان من الطبيعي ان يقصد ابو العلاء بعدما استنفد ما عند ابيه من علم حاضرة منطقته حلب وكانت ما تزال تغص باهل العلم والادب ممن كانوا يؤمون بلاط سيف الدولة اذ لا يعقل ان تنطفئ تلك الشعلة النيّرة من العلم التي عَشَتْ الى بلاط سيف الدولة ولما يمض ربع قرن على وفاته . ثم قصد المعري انطاكية وكانت بها مكتبة زاهرة قرئ عليه ما فيها من كتب فاذا قضى وطَرَه من انطاكية يمّم شطر طرابلس الشام . وقد اورد القفطي والذهبي انه (اي الشاعر) مرّ في طريقه باللاذقية فنزل بدير فيها وقع فيه على راهب درس الفلسفة وعلوم الاوائل فاخذ عنه ما شككه في دينه وغير دينه من الديانات ؛ قال ونمّ عليه بذلك شعر الصبا ولعلها قصدا الى قوله :

حنفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ومجوس تاهت واليهود مضلله
إثنان اهل الارض ذو عقل بلا دين وآخر دينّ لا عقل له

او قوله :

عجبت لكسرى واتباعه وغسل الوجوه ببول البقرْ
وقول اليهود إله يحبّ رشاش الدماء وريح القتَرْ
وقول النصارى إله يضام ويصلب طوعاً ولا ينتصرْ
وقوم اتوا من اقاصي البلاد لرمي الجمار ولثم الحجرْ
فواعجباً من اباطيلهم ايعمى عن الحق كل البشرْ

وانا لا ارى في كلتا المقطوعتين ما يبعث على الشك في ايمان الرجل ؛

وكل ما اراه انه انما ينتقد الدخيل على جوهر الدين ويأبى للبدع والخرافات والخزعبلات ان تلتصق بجوهر المعتقد الاصيل وما عليك الا أن تقرأ الشطر الاخير حيث يقول : « ايعمى عن الحق كل البشر ؟ » لتدرك أن ابا العلاء إنما اراد أن الناس قد ضلوا في متاهات الخرافات وغرقوا في ظلمات البدع والنحل التي ابعدتهم عن الحق أي الله ؛ فهم لا يعرفون السبيل اليه الا بهذه الخزعبلات التي يروّج لها تجار الدين وجل الله أن يقبل ذلك منهم .

هذا واغلب الظن عندي ان ابا العلاء قد درس الديانات الأخرى على ايدي القساوسة وانه حين أمّ بغداد لم يكن بحاجة الى مزيد من علم . والمرجح أن تكون دراسته لتلك الديانات في اللاذقية التي يقول فيها وقد شهد تنافس المسلمين والنصارى وذاك كله على ذمة ياقوت في معجم البلدان : يقول ابو العلاء والله اعلم :

في اللاذقية ضجة ما بين احمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذاك من حنق يصيح

وتكملة هذين البيتين فيما يرويه غير ياقوت الحموي :

كلٌّ يعزّز دينه يا ليت شعري ما الصحيح؟

ويعود ابو العلاء الى مسقط رأسه ليقبع خمس عشرة سنة اي حتى سنة ثلاثمائة وثمان وتسعين لا يحدثنا التاريخ فيها بشيء عنه بل كل ما يقع عليه الاسماع من انباء تلك الفترة ان الشاعر كان يجالس ظرفاء قومه ويقرض الشعر ولكنه لا يريق ماء وجهه للتكسب على عادة الشعراء وإنما هي قصائد بل رسائل بينه وبين اخوانه ومن يحترمهم ويحترمونه فجوائزه على مدائحه كجوائزهم على مدحه : كلام بكلام وما تبقى فضول .

وكيف يرضى ابو العلاء ان يتدنى الى طبقة المرتزقة من الشعراء وهو لا يرى له نداً في أدب وعلم وفلسفة ودين ، بل كيف يرضى ان يُريق ماء وجهه امام اولئك الحكام والامراء الذين يقول فيهم :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوّا مصالحها وهم أجراؤها !

لا : إنه لن يتكسب بشعره ولن يكون عالة على احد حتى من اقرب اقربائه فثلاثون او اربعون ديناراً يدرّها عليه وقف من أمّه تكفيه وتكفي خادمه كاتبه في آن معاً وليقتسماها بالسوية . وما حاجته الى اكثر من ذلك وهو القائل :

يقنعني بتمسّحٍ يُمارسُ لي فان انتفى حلاوة تبلسُ

وما حوجته الى اكثر من ذلك وهو الذي حرّم على نفسه الخيزران وما يتجه اليه وهو الذي اخذ نفسه نقداً يأكل فيه كي لا يراه احد لاعتقاده أن الفمي عورة يجب سترها . بل وهو الذي اكل في نقنقة مرة دبساً فوقعت نقطة على صدر ثوبه فلما خرج الى طلابه بادره احدهم قائلاً : يا سيدي اكلت دبساً . فقال ابو العلاء : نعمْ وقاتل الله الشره ولم يعد منذئذ الى اكل الدبس .

إنما نعسر اخق ريافة اخذ بها المعري نفسه دون ان يحمله عليها احد . فهل يعود ذلك كله الى قناعة منه عما أتى ؟ ام هو شيء آخر مما يسمونه اليوم بتركيبات النفس ؟

لو حاولنا ان نتذكر الاحداث التي فاجأت ابا العلاء منذ نعومة اظفاره حتى اكتهاله لادركنا بعض الاسباب التي دفعت به الى أن يحيا هذه الحياة الشاذة ولزودتنا بالسبب المقنع لتركه معرة النعمان وسيره الى بغداد . وسنرجئ رأينا في ذلك الى ما بعد رجوعه من بغداد وشروعه في كتابة رسالة الغفران .

واذن فقد ضاقت نفس ابي العلاء بمعرة النعمان ذرعاً وسمع عن حاضرة العلم والعلماء وقبلة أنظار المتأدبين : بغداد بلد الرشيد والامين والمأمون وإن تكن ايامَ ابي العلاء مشككة الاوصال مضطربة الاحوال تسير بخطا وئيدة الى شرّ مآل . إنها وان تكن كذلك فما زالت لعهده ندوة ادب وشعر وفن وغناء بل قبلة كل متطلع الى الشهرة والمجد . فما له يدفن نفسه في ناحية مهجورة من المعمور . فاليك يا بغداد سنة ثلاثمائة وثمان وتسعين على الرغم من معارضة العجوز إذ يلحف الكهل باقناعها انه انما يقصد بلد الرشيد لا لشيء غير العلم والاستزادة من المعرفة . ويصير الى بغداد ويحتفل به مجالسها وتسير بشهرته الركبان ولكن حياءه يأبى عليه ذلة السؤال . ويطير اليه نبأ مرض امه فيودع بغداد وداعاً أليماً يقول فيه :

أثارني عنكم امران : والـدة لم القها وثراء عـاد مـفـوتـا

وترافقه ذكرى بغداد حتى آخر ايامه فما ضامه أمر الا ردد قوله :

يا لهف نفسي على أني رجعت الى هذي البلاد ولم أهلك ببغدا ذا
اذا رأيت امورًا لا تـوافقني قلت: الإياب الى الاوطان ادنى ذا

ويوافيه نعيّ أمّه في طريقه الى معرة النعمان فيكون وقعه عليه أليماً .

ولعل هذا النبأ كان بمثابة القطرة الاخيرة التي فاض فيها الإناء فيعزم على اعتزال الناس وقد خبر مكرهم وخداعهم ولم يستطع أن يجاريهم في تصرفاتهم واعمالهم وكذبهم ونفاقهم الاجتماعي ورياثهم فيكتب الى خاله ابي القاسم قائلاً إنه : « وحشي الغريزة إنسي الولادة . »

اما انا فلا ارى رأيه بل احمل قوله هذا محمل الاعتذار عن معايشة الناس لقصور في نفسه ولعدم استطاعته تحمل المصائب التي المتْ به ولقلة حيلته ولتعاظمه على اقرانه تعاظماً خفياً عرف كيف يستره في حين لم يستطع المتنبي ان يخفيه ولعلكم تعلمون ان ابا العلاء كان من اكثر الناس اعجاباً بابي الطيب ولقد كلفه اعجابه هذا ان يطرد في بغداد من مجلس الشريف المرتضى .

يجدر بي قبل ان اسلط الاضواء على خفايا نفس ابي العلاء ان اقدم لكم تحليلاً لتلك النفس قام به الدكتور طه حسين ؛ ومَن أجدر بمعرفة ما يجول في نفس مكفوف من مكفوف ورحم الله من قال :

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

يقول الدكتور طه حسين :

«المكفوف اذا جالس المبصرين اعزل وان بزّهم بأدبه وعلمه وفاقهم في ذكائه وفطنته ؛ فقد يتندرون عليه باشارات الايدي وغمز الالحاظ وهزّ الرؤوس وهو عن كل ذلك غافل محجوب . فان نمّت عليهم بذلك حركة ظاهرة او صوت مسموع فحجته عليهم منقطعة وحجتهم عليه ناهضة ؛ وليس له من ذلك كله الا ألم يكبته وحزن يخفيه . ثم هو إن اشتد ذكاؤه وانفسح رجاؤه كثرت حاجته اليهم وكثرت نعمتهم عليه ؛ فهو عاجز عن تحصيل قوته الا بمعونتهم وهو عاجز عن شفاء نفسه من حب العلم والمطالعة الا بتفضلهم وهو عاجز عن الكتابة والتحرير الا اذا اعانوه وتطولوا عليه . وللمنن الظاهرة والآلاء المتواترة في نفس العاجز القطن أثر هو الشكر يشوبه الحزن ، والثناء يمازجه الاسى ، والحرمان اخف عليه من منة يعقبها مَنّ ونافلة تشوبها استطالة . ولشعور الانسان بعجزه وقع ليس احتماله ميسوراً ولا الصبر عليه الا متكلفاً . وليس يلقي المكفوف من رأفة الناس به ورحمتهم له وعطفهم عليه الا ما يذكي الالم في صدره ويضاعف الحزن في قلبه ؛ ثم هو لا يلقى من قسوتهم وشتمهم ولا استهانتهم وازدرائهم الا ما يُشعر الذلّ والضعة وينبهه الى العجز والضعف ... ومكان المكفوف في

نفس زوجه وبنيه دون مكان البصر : فاجلاهم زاد محمود وطاعتهم له منصورة على ما يتشبه اليه . ثم هو بعد ذلك كله قد حُرم التمتع بلذة يُكبرها الناس : وجيئه اياها يضاعف خطرها في نفسه . فان تعاطى صناعة الشعر او الوصف فان هذا الحرمان قد استتبع ضعف خياله وحال بينه وبين مجاراة الشعراء والواصفين فيما يتنافسون فيه الا ان يكون مُقلّداً او محتذياً . ثم هو يسمع الناس يتحدثون عن بهجة الربيع وجمال الربا وعن تساق الازهار واعتناق الاشجار ... وعن اولئك الحسان الفاتنات تورّدت خدودهن ولمعت ثغورهن والتأمت من وجوههن وشعورهن نضرة النهار ونحمة الليل ... يسمع احاديثهم عن هذا كله وما ابدعوا فيه من تشبيه لا يعقله ولا يفقه كنهه ، فضلاً عن ان يجاريهم فيه او يسبقهم اليه . ثم هو بعد هذا كله قاعد اذا نفر الناس لقتال او حرب ، قد يئس وطنه من نصره وقنط من حفاظه فلم ينُط به أملاً ولم يعقد به رجاء ؛ كَلٌّ على الناس في كل شيء لكُلّة في حياته المادية والمعنوية فاليأس اخلق به من الرجاء والموت خير له من الحياة الا ان تكون له نافلة من فضيلة الصبر ،وشلة الأيد . »

هذا رأي مكفوف فيما يعتمل في نفس مكفوف . وارى انه على شيء كثير من الصواب وإن لم يصب في رأيي موضع الضعف في نفس ابي العلاء ذلك أن لي رأياً خاصاً في هذا الباب وخاصة اذا علمت ان شعر ونثر ابي العلاء عبارة عن نقد للمجتمع بتقاليده وعاداته واخلاقه وسلوكه الفردي والجماعي حتى بلغ به الامر الى نقد الديانات جميعاً وإن لم يُرد نقد الجوهر وهذا راجع الى الآفات التي نزلت به والتي أشرتُ اليها في أماكنها ولا بأس ان استعرض طائفة من اولئك الذين ناظم مثل ما نال ابا العلاء لأخلُص الى نتيجة أرجو ان تكون اقرب الى الصواب منها الى الخطأ .

في تاريخ الأدب طائفة من الشعراء والكتاب رأوا ان الطبيعة بخستهم حقهم او ان المجتمع تحامل عليهم فكانوا احد اثنين : ناقم لا يميل الا مع هوى نفسه ومنتصر على ذلك النقص ولعلك لو استعرضت اولئك المشوهين جسدياً او اخلاقياً لرأيت ان معظمهم ناقم جاقد يودّ بوسيلة او باخرى ان يعوض عما يعتقد انه بخس حقه فيه .

فهذا الخطيئة ينشأ مُتدافع النسب في بيئة لا تقيم وزناً الا لمن كان ذا حسب ونسب فاذا هو ناقم على الناس لانهم خير منه حسباً خاقد

على امه لوضاعتها وخسّتها ناقم على نفسه لتقصيره وقراءته ودمامته وعلى ذلك لا ينجو هو نفسه من هجائه . وهذا بشار يولد أكمه قبيح المنظر فيسوء مخبره وتتحول نقمته على الناس فينال من اعراضهم ويُغري نساءهم ويسلّط لسانه عليهم فلا يتورع من هجاء الخلفاء ويستهتر بمعتقدات الناس فيؤذَن وهو سكران . وهذا المتنبي يخرج من العدم : عدم الشهرة والنسب وهو ابن سقاء في الكوفة فيحاول ان يعوض عما اصابه من نقص فاذا هو — منذ نعومة اظفاره — يدعي النبوة فاذا فشل تحولت نقمته على المجتمع واستحالت وضاعته تعاظماً فهو لا يرى فوقه عظيماً ولا ينسى ان يفتخر بنفسه حتى وهو يرثي جدته . وهذان المازني والعقاد يظهران في فترة تسنم فيها سدة السيادة والشهرة شاعرا العصر شوقي وحافظ فيحاولان اللحاق بهما نظماً فاذا اخفاهما الامر أصدرا كتاب الديوان وكله تجريح بحافظ وشوقي حتى اذا كان لهما ما ارادا من المكانة الادبية اعتدلا في نقدهما وانصرفا عن الشعر الى التأليف .

هذه نماذج ممن لم يؤتوا حظاً في هذه الدنيا او ارادوا السمو والشهرة فلم فاذا اخفقوا نقموا على الناس كونهم خيراً منهم واستحال فشلهم الى نقمة صبوها على المجتمع . على ان هنالك أناساً نشؤوا في العدم والشقاء وبخستهم الطبيعة حقهم من الكمال والجمال فاستعانوا على هذه النواقص بخفة الظل ولين الجانب ودماثة الخلق والنكتة البارعة حتى على انفسهم فاستطاعوا بذلك ان يبرئوا انفسهم من مركّب النقص هذا واشهرهم في هذا الميدان الجاحظ القصير الدميم الناتئ العينين والذي كان يقول : لا اترك النكتة ولو قتلتني .

هؤلاء جميعاً نالهم من مركب النقص والقصور والتخلف ما نال ابا العلاء فتلقى بعضهم آفته بصدر رحب وتغلب على مشاق الحياة ونغّص عما يعتمل في نفسه من حقد بابتسامة عريضة وقهقهة مجلجلة كما فعل الجاحظ ونظر بعضهم الآخر الى مصيبته بمنظار اسود ونقم على الناس تخلفه عنهم ونقم على الطبيعة التي بخسته حقه فارتدت ضغينته على الناس فشفى نفسه باذيتهم وسبهم . كما فعل بشار ونظر بعضهم الآخر الى مصيبته بعين اليأس كما كان حقده على الحياة وكرهه لها سبباً في انطوائه على نفسه ونقده اللاذع لاولئك الذين لم تمكنه الطبيعة من مساواتهم فترفع عنهم وانصرف عن اهوائهم وربأ بنفسه أن تتدنى الى طرقهم الملتوية في كسب العيش فتنع

بالفشل اليسير والتزوى في جحر مظلم لا يريد ان يراه فيه احد لان العمى عورة يجب سترها .

هذا الاحساس بالنقص وهذا الشعور بالظلم : ظلم القدر : جعلا من أبي العلاء إنساناً منكمشاً مغرقاً في سوداويته : ينظر الى كل افعال الناس وعاداتهم وخلاقيم ووجهة نظرهم الى القيم الاجتماعية والاخلاقية والدينية . حتى جعله ذلك كله ينظر الى ذلك كله بمنظار اسود : فالصادق من الناس كاذب والكريم خسيس يروم سناه برفع الناس وكل ما في الحياة باطل الاباطيل وقبض الريح .

وما دام الامر على ما يرى فالابتعاد عن الناس غنم ومعاشرتهم غرم . ولكنه مع ذلك يريد ان يسمو في انظارهم ويجعل قدره فوق اقدارهم ولا سبيل الى ذلك الا بالعلم والتأليف فليقض خمسين سنة أو أزيد في التفضل على الناس بتعليمهم نهاراً والانزواء في مخدعه ليلاً يتأمل ويتأمل فلا ينجم عن ذلك التأمل الطويل سوى قلق دائم لا يخرج به الى نور يقين . وأنى له ذلك وقد ضرب العمى بينه وبين ذلك كله جداراً صفيقاً لا سبيل الى تسلل النور من خلال حجارته المتراصة ؛ وما دام الامر كذلك فليهتبل كل فرصة للنيل من اولئك الذين يدعون التفضل والعلم وهو يرى نفسه فوق كل ذي علم في عصره وقبل عصره .

وفي ساعة من ساعات ذلك القلق الممض ترد عليه من حلب رسالة علي بن منصور الحلبي الملقب المعروف بابن القارح . ولتكن هذه الرسالة التي افاض فيها الكاتب الحلبي من شكوى الزمان وتنميق الكلام مخرجاً لابي العلاء مما يدور في نفسه من اشياء يريد أن يقولها لكنه لا يجد السبيل الى قولها : لتكن رسالة الحلبي الشيخ الذي يدعي العلم والفهم منتاحاً على نفسه ومتنفساً لما في صدره وعقله سبيلاً والى سفح الدمعة التي طالما احرقت جفنيه ، فلتقرّ عيناه الآن بما سوف يكيل لابن القارح من جميل العبارة ويستخرج القول وليفض في تبيان سعة معرفته وليستشهد قدر الامكان وليغرب ما شاء له الإغراب وليوضح بعض ذلك الغريب فان اهل زمانه دونه إحاطة بعويص اللغة وباوابدها وشواردها . لقد آن له ان يخرج عن صمته . فالدافع الى كتابة الغفران رغبة قامت في نفس ابي العلاء الى نقد تصوّر البعث كما يفهمه عامة الناس والتنفيس عن قلق ممض اخذ يساور مخيلة الشاعر الفيلسوف منذ سن الرابعة عشرة اليس هو القائل يومئذ في رثاء ابيه :

سألت يقيناً يـا جهينة عنهم ولم تخبريني يا جهين سوى الظن
فان تعهديني لا ازال مـاثـلاً فاني لم أعْطَ الصحيحَ فأستغني

اجل . ان الاجابة عن اسئلة كثيرة تدور حول الحياة والخلود . امر التقى بابي العلاء في دوامة من القلق : فلماذا جئنا هذا الكون ولماذا نمضي عنه ولم يسألنا احد رأينا لا في مجيئنا ولا في رحيلنا ! وان كنا خلقنا لامر في نفس الخالق فما هو ذلك الأمر ؟ ولماذا نرغم على مفارقة الحياة وقد تعلقت نفوسنا بها وألفتها والألفة أشدّ علوقاً بالنفس من الحب . ألم يقل المتنبي :

خُلقتُ ألوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقتُ شيبي مُوجَعَ القلب باكيا

وما اجمل ما علل ذلك الشاعر الرمزي Sully Prud'homme في قصيدته السلاسل اذ يقول ما مؤداه : اننا نبكي لفراق الدنيا لا خوفاً من الموت بل لاننا ألفنا اشياء في هذه الدنيا يعزّ علينا فراقها .

الباعث الآخر على كتابة رسالة الغفران هو إظهار المقدرة اللغوية وذلك ظاهر في المناقشات التي يجريها ابو العلاء على السنة اللغويين والشعراء من اهل الجنة والنار وفي ايضاح الغريب العويص من الالفاظ مع ان المخاطب إمام من أئمة البلاغة في ذلك العصر . وكأنما اراد ابو العلاء ان يسخر من المخاطب بطريقة غير مباشرة . ولقد احسّ بما قد يساور الشيخ الحلبي من استعلائه عليه فاعتذر عن ذلك بان الرسالة قد تقع في أيدي ممّن لا يفقهون غويصها فتأول تأويلات شتى ، ومما يميز هذه الرسالة التي طوّف فيها خيال المعري بالجنة والنار والمنزلة بين المنزلتين كثرة الاستطراد الذي يرمي من ورائه الى إخاء القارئ عما ورد فيها من نقد لاذع وسخرية مريرة من مفاهيم الناس الخاطئة . كما قصد إلى إظهار معرفته الموسوعية بذكر الكثير من الشعر والحوادث والاسماء والاخبار واليك احصاء في ذلك :

اسماء الاعلام (٥٨٩) .
اعلام الامم والقبائل والأسر والطوائف (١٣٧) .
اعلام الاماكن (١٧١) .
اسماء الكتب (٤٨) .
عدد الابيات التي استشهد بها (٩٥٧) .

هذا ما عدا انصاف الابيات والشواهد. وبث بعد هذا الاحصاء التقريبي ان تحكم على سعة اطلاع الرجل.

والرسالة على كبير جرمها لا تعرض لشيء من شعائر الدين الاساسية ولكنها تنتقد خرافات العامة. فابو العلاء اذن محافظ محافظة ابيه واعمامه على شعائر الدين الاصيلة ولكنه منكر كل الإنكار لتبدع النعية وللتشور التي الصقها اعداء الدين بالدين ومن يقرأ بين السطور يدرك حقيقة ما اقول فجوهر الدين عند ابي العلاء شيء مقدس وهو الذي يقول:

ايها الجاهل لا تعصِ النهى ... فلقد صحّ قياسٌ واستمرْ
إن تعد في الجسم يوماً روحه ... فهو كالربع خلا ثم عمرْ

وهو القائل ايضاً:

انفرد الله بسلطانه ... فما له في كل حال كفاء
ما خفيتْ قدرته عنكمُ ... وهل لها عن ذي رشادٍ خفاء

فالبيت الاول لا يعدو قول الله عز وجل: «قل هو الله احد.» الى آخر السورة لانه يثبت الوحدانية ويثبت التقيد بلفظ القرآن الكريم فيقول: «فما له في كل حال كفاء.» وهو قول مستمد من قوله تعالى: «ولم يكن له كفواً احد.»

لم ينفرد ابو العلاء بهذه الرحلة الخيالية وان يكن قد انفرد فيها باسلوبه الفني وسخريته اللاذعة. فهناك معاصر للمعري طاف عالم الجن في رسالة أسماها: «التوابع والزوابع». وهو ابن شهيد الاندلسي المولود سنة ثلاثمائة واثنتين وثمانين والمتوفى سنة اربعمائة وست وعشرين. على ان رسالة التوابع والزوابع لا تعتبر سوى فخر من صاحبها بشعره. وفي العصر الحديث نظم فوزي المعلوف. «على بساط الريح.» وهي تمتاز بسوداوية المزاج وقد ترجمت الى كثير من اللغات الغربية. كما نظم اخوه شفيق ملحمة «عبقر» التي يطوف فيها على ظهر شيطانه بمدائن الجن وتتسم هذه الملحمة بالتأمل الفلسفي والنظر في اخلاق الناس. ولجميل صدقي الزهاوي قصيدة يتمثل فيها ضعاف العقول في الجنة والاذكياء في النار وتثور ثائرة الاذكياء فيخترع علماؤهم مادة يطفئون بها النار ثم يرقون الى الجنة فيدفعون بالبلهاء الى قعر الجحيم.

هذه الآثار كلها تتسم على ما ارى بالسطحية إلاّ رسالة المعري فانها تتسم بالقلق الذي لم يستطع ان يبرأ منه طوال حياته . ويجدر بنا في هذا المقام ان نعرض لاعظم شعراء ايطاليا على الاطلاق الا وهو : (آلجييري دانت) المولود في فلورنسا سنة الف ومائتين وخمس وستين والمتوفى سنة الف وثلاثمائة واحدى وعشرين . ساهم دانت في الحركات السياسية ونفي في السابع والعشرين من كانون الثاني سنة الف وثلاثمائة واثنتين . وفي منفاه نظم ملحمته الكبرى : المهزلة الالهية التي استوحى احداثها من حبه الاول والأخير لامرأة تدعى بياتريس . تنقسم هذه الملحمة الى ثلاثة اقسام :

فالقسم الاول بعنوان : الجحيم .

والثاني : المطهر .

والثالث : الفردوس .

وكل من هذه الاقسام يتألف من ثلاثة وثلاثين نشيداً يضاف اليها جميعاً نشيد المقدمة . ومما تجدر الاشارة اليه تقيد الشاعر بالعدد « ثلاثة » الذي يرمز الى الثالوث الاقدس . وتتراوح ابيات كل نشيد ما بين مائة وثلاثين ومائة واربعين بيتاً .

يجد الشاعر نفسه وقد اكتهل في غابة موحشة متقرة مظلمة وقد غلب عليه اليأس وتملكه الحزن واستبد به القلق . وفي خضم هذا البلاء يلوح لعينيه جبل مشرق تغمره الشمس فيتوجه اليه محاولاً أن يرتقيه ولكن ثلاثة حيوانات هي الفهد والاسد والذئبة تعترض طريقه وتقذف به الى الغابة المظلمة . حينئذ يقبل عليه فرجيل الشاعر اللاتيني الشهير وقد بعثت به بياتريس لينقذ الشاعر من الهلاك المحقق والضياع الابدي . فيكون فرجيل بمثابة المرشد للشاعر . ذلك المرشد الذي سيسير به الى جبل النور . ولكن الطريق وعرة ملتوية تحتم عليه ان ينزل الى اعماق الجحيم ثم يرتقي جبل المطهر فاذا صار الى اعلى القمة استطاع ان يتحقق من السعادة الابدية التي خص بها الله اولياءه الصادقين .

إن المغزى الاخلاقي والديني والسياسي يتمثل في هذه الملحمة الرائعة : فضياع دانت في الغابة يمثل النفس الغارقة في الخطيئة . والجبل المضيء يمثل الخلاص من القلق . والحيوانات المفترسة تمثل حسب ارسطو الميول الجسدية التي تدفع بالانسان الى الشر . وفرجيل يمثل العقل البشري . وبياتريس ترمز الى الايمان الذي لا خلاص الا به .

وهكذا يتغلب دانت على القلق الذي ساوره فترة طويلة من حياته فعسره نور الايمان الذي لا خلاص الا به . وما كان أجدر ابا العلاء بان يقتل ذلك القلق بنور الايمان الحي ودفء المحبة الصادقة بدل ان ينفق ايامه في النقد الهادم دون ان يرسم طريق البناء الفعال .

رحم الله ابا العلاء فما فلسفه احد ولكنهم كانوا انفسهم يظلمون .